محمد زفزاف

مشكلة كل يوم

جاء في بيان رسمي للحكومة ان حركة البناء بالمغرب قد اخذت تزدهر . لا شك ان هذا ما يفسر كون اكتراء بيت عادي مثلا في حي شعبي يعادل اجرة شهرية باكملها لموظف صغير . اما غير الموظفين الصغار فلا يدري احد اين يسكنون . ربما كانت هناك كهوف كثيرة وسط المدينة يأوي اليها الناس الذين لا يستطيعون دفع اجور الكراء .

كان بعض العمال معلقين فوق السقالات على طول المدينة وعرضها. اما العمارة الكبيرة التي تواجه المقهى فقد اوشك بناؤها على الانتهاء وتم طلاؤها الان بالجير الابيض . وينتظر قريبا تركيب ابواب المتاجر تحت ، وتركيب زجاج النوافذ .

قال الجرسون للزبون :

« ـ اذا رزقك الله فلا احد يستطيع ان يمنع عنك رزقك . »

ثم استمر في الحديث :

« ـ كنت اعرف هذا الرجل فقيرا معدما . بعد خمس سنوات ها انت ذا ترى . لقد اشترى هذه البقعة بثمن بخس . والان لا احد يمكنه تقدير مدخول العمارة ذات الطوابق السبعة . »

وقال الزبون للجرسون :

« ـ هات كأسا اخرى . واحد اعطاتو وواحد زواتو . »

ورأى الزبون ـ الذي كان موظفا صغيرا ـ رجلا لم يكن اكثر منه رتبة ، يعرفه جيدا . فهو يغير السيارة كل عدة شهور ، وهو متزوج بامرأتين ، يدفع ثمن كراء بيتين . كانت احدى المرأتين تفعل ذلك على مرأى ومسمع من الجميع . ولم يكن الزوج يهمه شيء سوى تغيير السيارة وارتياد الحانات . وكان المال ينزل عليه من السماء . وسمع الزبون الجرسون يقول له من جديد :

« ـ اذا رزقك الله فلا احد يستطيع ان يمنع عنك رزقك . »

وقال الزبون برأسه : « تماما . » ثم قال برأسه كذلك : « كلا . » لطوابير ماسحي الاحذية والمتسولين الذين كانوا يتزاحمون حوله . ثم جاء جرسون اخر فقط ، واعترض طريق المتسولين في حين سمح لحوالي ثلاثة من ماسحي الاحذية بالقيام بجولة داخل المقهى . ورأى الزبون الرجل المتزوج بامرأتين يغادر سيارته ويتوجه نحو المقهى . وعدل الرجل رأيه فتوجه نحو قهوة اخرى . ودارت في رأس الزبون افكار عن الرجل . في حين كانت تدور افكار اخرى غير مماثلة في رأس الجرسون الفظ الذي تخلى الان عن مهمته في طرد المتسولين ، وجلس يتأمل الكراسي الطويلة حول البار . واذ ذاك كان عمال بناء كثيرون معلقين على السقالات في جميع احياء المدينة . وقال عامل بناء لرفيق له في الحي الشرقي :

« ـ انها الثانية عشرة . يجب ان نتغدى . هل معك نقود ؟ اذهب واشتر زبدة وخبزا لنتغدى . انا ليس معي اي شيء . كل ما كان عندي دفعته امس تكلفة تأمين وكتب لابني في المدرسة . »

واجاب عامل البناء الاخر :

« ـ انت احمق . لماذا دفعت تكلفة التأمين . سوف يطردونه في اخر السنة . لقد فعلوا نفس الشيء مع ابني الاوحد في السنة الماضية . »

واستمر العامل في ترديد اغنيته الحوزية المفضلة لديه . لكن الاخر اخذ يفكر فيما قاله صديقه . ولم تكن تلك مشكلة الرجل الوحيدة (اقصد الرجل الذي طردوا ابنه .) بل كانت له مشكلة اخرى لا يفوه بها لاحد ابدا . ان ابنته تقضي شبابها الان في السجن . ذلك ان الشرطة قبضت عليها وهي متلبسة بجريمة القاء جنين في قمامة ازبال. ورغم ما قالته في المحكمة من انها كانت جائعة وان اباها كان عاطلا وانها فعلت ما لم تكن تريد فعله ، فان المحكمة اصدرت حكمها عليها بعشرين سنة نافذة . اما ابوها فهو مستمر في ترديد اغنيته الحوزية المفضلة لديه ، ناسيا كل شيء . في حين كان الاخر وهو معلق الى جانبه يفكر في غداء هذا اليوم وفي اشياء اخرى ربما كانت ذات اهمية .

وقال الجرسون للزبون :

« ـ انك تشرب بنهم شديد . »

في هذا الوقت كان الجرسون الفظ ينظر الى الزبون نظرات شزراء وعندما تلتقي اعينهما فان الجرسون الفظ لا يطرق الا بصعوبة . وقال الزبون الذي رأى بنتا صغيرة واعتقد انها بنته جاءت تبحث عنه :

« ـ واحد اعطاتو وواحد زواتو .. لقد اتفقنا . هات كأسا اخرى . »

وعندما خدمه الجرسون ابتعد في زاوية البار واخذ يقول لنفسه ما يلي :

« حقا ، واحد اعطاتو وواحد زواتو . انت الذي فعلتها لنفسك ايها البليد . تتردد على هذا المكان منذ سنوات وتعتقد ان الحظ سوف يحالفك . افعل مثل اولئك الذين اعطتهم الدنيا نفسها . الا تخجل من نفسك ايها الحمار ؟ لك ثلاثة اولاد وتسكر يوميا . »

ثم استمر الجرسون في الزاوية يقول لنفسه ايضا :

« ـ احمد الله . كنت ماسح احذية فقط . اما الان فأملك ثلاث

عمارات وبقالة . وانت ايها الحمار ماذا تملك ؟ »

وقال الزبون لنفسه وهو يشرب :

« ـ لا بد ان ازين اليوم . الحياة جميلة والفتيات الصغيرات الجميلات كثيرات . » اما الجرسون الفظ فكان قد وقف الان يدفع متسولا قوي الجسد . ورأى الناس الجرسون الفظ يسقط ارضا . ثم تدخلوا بينهما وانتهت المعركة . وقال رجل لرجل :

« ـ انه قوي مثل بغل . لماذا لا يشتغل ؟ »

سمعه المتسول القوي وقال له :

« ـ اسكت يا حمار والا فعلت بك ما فعلته بهذا » .

واشار جهة الجرسون الفظ . فسكت الرجل وخاف على نفسه من صفة تسمى الاهانة . لكن رجل بوليس سري لم يكن يخاف من الاهانة توجه الى المتسول في ثقة وقال له :

« ـ هل تريد ان تبيت هناك . » ففهم المتسول ما هو المقصود بـ « هناك » . انسحب من المقهى وترك الجرسون غير الفظ يقول للزبون :

« ـ انه دائما ياتي الى هنا . لقد كثر المتسولون بشكل فظيع . يمر المئات كل يوم من هنا . »

وقال الزبون للجرسون :

« ـ ان الناس لا يعرفون ما يفعلون بانفسهم في البوادي . لو كنت تسافر لرأيت ما هو افظع . »

وقال الجرسون :

« ـ عندهم الارض فليحرثوها . انهم كسالى . »

قال الزبون :

« ـ يبدو انك تفهم كثيرا . انك رجل ذكي . لكن عليك الا تنسى ان واحد اعطاتو وواحد زواتو . »

ولنفسه : « وهذا ينطبق عليك يا بغل ، يا حمار ، يا كيدار يا .. الخ الخ . »

وعندما كان الزبون يقول ذلك . كان اغلب العمال ينزلون عن السقالات ليتغدوا خبزا وزبدة وربما شايا . في الوقت الذي كانت فيه موائد فاخرة ، يتحلق حولها اناس لا يفكرون سوى في زيادة ثروتهم ، وبناء المزيد من الفيلات ، والتفكير في زواج الابناء من عائلات شريفة ، تملك المزيد من العقارات والاسهم في الشركات . قال الاب وقد نزع طربوشه عن رأسه ، فظهرت صلعته لامعة تحت وهج الشمس المتسرب من النوافذ :

« ـ اسمعي يا بنتي . ذاك الشاب لا يليق بك . انا اقترح عليك ابن علان الذي يدرس الان في فرنسا . سيحصل في نهاية هذه السنة على دكتوراه في الكيمياء . »

وقالت الام :

« ـ لكنه ليس جميلا . انه قصير وخجول . »

في حين وقفت البنت ودارت على نفسها . امرأة حقيقية من غير شك . جميلة . لها قامة طويلة ومتناسقة . دارت على نفسها وتوجهت نحو الصالون غاضبة . فقالت الام للزوج :

« ـ قلت لك مائة مرة يجب الا تتحدث اليها في هذا الشان ونحن نـاكل . »

قال الزوج الاصلع الثري :

« ـ لن اكرر ذلك . »

وقامت الام وتوجهت الى الصالون وعادت بالبنت . كانت تمسح دموعها . ولم تكن لديها شهية . اما العاملان اللذان نزلا عن السقالات فكانت لهما شهية غول . ولم تكن الخبزة وكمية الزبدة القليلة التي اشترياها تملأ اعينهما . ولكن احدهما قال لنفسه : « احمدك يا رب . » وكانت السيارات كثيرة ، من مختلف الماركات ، تملأ الشوارع بضجيج محركاتها وتتوجه الى مختلف الاحياء . ويمكن للمرء ان يتساءل من اين ياتي هؤلاء الناس بكل هذا المال . وفي نفس الوقت كان المتسولون قد نشطوا في الالحاح على الناس بالصدقة . لانه ، بعد قليل ، ستخلو الشوارع . فوقت الغداء قد حان . وقال متسول لرفيقته التي كانت تحمل طفلا صغيرا اكثرته من جارتها العمياء ، وتجر طفلين صغيرين قذرين لا يكفان عن ضرب بعضهما :

« ـ عليك ان تلازمي تلك القهوة . اما انا فسألازم هذه . وعندما اشير لك افهمي انني سأحل مكانك فتعالي لتلازمي قهوتي . »

اما الصغير الذي كان بين ذراعيها فقد نزل مخاطه على شفتيه فابتلعه ، لانه كان جائعا . اذ ذاك نشط الجرسون غير الفظ في ملء الكؤوس للزبائن الذين اصطفوا خلف البار . وظهرت علامات الانشراح على الجرسون . وكان رجل فقير ، خلف الزبائن ، يردد بصوت مرتفع: « والذي حارت البرية فيه ... » لكن الجرسون الفظ كان له بالمرصاد. امسكه من ذراعه ودفعه خارج المقهى وهو يقول له : « ـ دع الناس يشربون في خواطرهم . الصباح لله ! » ودخل الجرسون وعلى وجهه علامات القسوة . ثم جلس في مقعده المعتاد وعيناه تنتقلان من زبون الى اخر .

جاء في بيان رسمي للحكومة ...

الدار البيضاء (المغرب)

مكتبة انطوان

شارع الامير بشير ـ بيروت

تقدم اكبر مجموعة من كتب الهدايا
في مختلف اللغات العربية والافرنسية والانكليزية

موسوعات مصورة ، علوم متنوعة
ثقافة شاملة ـ حضارات الامم

مكتبة انطوان ـ شارع الامير بشير ـ بيروت